رحلة قصيرة في دهاليز الوجود العربي المعاصر

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

« قبل ان يبني العربي مصيره الجديد ، عليه ان يخسر تماما ثقته بكفاءة الوجود العربي التقليدي وقدرته على الاستمرار ، ويشعر بأنه أصبح غريبا فيه ويحس بحاجة عميقة الى تجاوزه والغائه ... هذا موقف ينطوي على التزامات ثقيلة جدا يصعب على الفرد ان ينفتح لها ما لم يشعر ببؤس نفسي عميق يولده فيه الوجود التقليدي » .

نديم البيطار في « الايديولوجية الانقلابية »

قنديل الزيت في طفولتي الجامحة كان له سحر خاص . فاذ يقرأ الانسان الى قلب الليل بجرأة من تحدى كل شيء في سبيل مغامرة الكشف البريء ، تصبح المسابقة اخيرا ، وقد نام الاحباء الطيبون ، مع الذبالة المتذبذبة التي توشك ان تمتص اخر قطرة من الزيت (١) . كنت في اول عهدي بهذه المغامرة ، اشعل احد المصابيح الكبيرة في غرفة المكتبة ، ثم اكتشفوا امري ، فصرت ألجأ الى القنديل الصغير في الممر ، وهو مشتعل دوما على كل حال ، فأقرأ الى وجه الصباح في ليالي الصيف المثقلة بالحر والنعاس . واذكر ان اخر كتاب قرأته قبل ان يفتضح أمري نهائيا وتضرب حولي المتاريس المنيعة كان عن عادات البدو في صحراء سيناء ، وأظن اني كنت في الفصل الذي يتحدث عن الازواج والاعراس .

منذ ذلك العهد الطفولي المفعم بالدهشة والفضول لم يوقظني كتاب اخر حتى اخذت ذات مساء كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » لنديم البيطار ، فعرفت مرة اخرى لذة المساهرة الصامتة الى بواكير الفجر ، واستسلمت بنشوة آسرة لدفق الكلمات السحرية اذ تسكب على الروح ، كحب جديد ، منذرة بأجمل أيام المستقبل .

ليس هينا ان يتعرف قلبنا الذي كفر على وعد الخلاص . نحن برؤانا القاتمة قد ملانا قلوب الجيل الصاعد رعبا . خذ مثلا ابنتي مي ، وعمرها ست عشرة سنة . انها منذ زمن طويل تحاول ان تتحدى حيرة جيلنا نحن بالتشبث بكل بوادر الايمان ، قديمها وجديدها ، بالدين ، والعروبة ، والشعب ، وتوزيع رأس المال . أترى عنها أم عنا يكتب نديم البيطار ؟

في ليالي لندن الطويلة التي تتجاوب فيها أصداء الذكريات ، اجد نفسي في كثير من الاحيان مسوقة الى ترك كل شيء ـ كتبي المتعبة ، عشرات المجموعات الشعرية اللاهثة التي لفظتها المطابع العربية في هذا القرن هبة للتاريخ اكثر منها منحة للفن ، مئات المقالات المكررة المحشوة بنفس العبارات التي تدور وتدور وتدور ، هي والدواوين والكتب ، حول محاولة امتنا الدائبة اكتشاف هويتها الحقيقية ـ اتركها وأفكر ، وقد استسلمت لاصدائها المنهكة ، في حياتنا الغريبة في الوطن ، وفي علاقتنا الحقيقية بالتاريخ والاحداث . ان كان حقا ما يقوله نديم البيطار في كتابه « الايديولوجية الانقلابية » و « الفعالية الثورية في النكبة » ، فنحن اذن مهيأون لان نلعب دورا حاسما في تاريخ الامة الطويل ، مهيأون ، بحكم موقعنا من الزمن نفسه ، بحكم علاقتنا مع انفسنا ومع ماضينا القريب المفموس بالفجيعة ، بحكم ما في التاريخ من جذب وشد ، ومن دفع وعطاء ، لان نكون نحن الخالقين الجدد للتاريخ الذي نام وارتوى نوما منذ القرن السابع .

أكاد لا أصدق ! كيف يتم هذا ؟ اذكر ـ آه ـ أمسية من أمسي التجربة المرهقة . ها أنا ذا بين مجموعة من الوجوه ، حوالي الاربعين وجها ، ممن يسمونهم بالصفوة المنتقاة (عبارة مريضة لا تعني شيئا) . وها هم يتناقشون حول موضوع عقيم . ويطول النقاش ، وتفتنهم أصداء أصواتهم فيوغلون ، وتمط ولا تنتهي المسرحية المثيرة للشفقة واليأس . واذ أخضع لدندنة النقاش المطوط ـ أخذ وعطاء ، اقتراح ومعارضة واقتراح على الاقتراح ، تصويت وعد ، احصاء وتسجيل ، نقض واحتجاج (انهماك هائل !) ـ أشعر كأني محمولة على نقالة للمرضى وقد أفقت لتوي من التخدير ، وسار بي ممرضون مقنعو الوجوه في دهاليز بيضاء لا تنتهي . وأسأل زميلة عن يميني وأنا أكذب أذني « عم يتكلمون ؟ » ، فتنظر الي بدهشة وتقول « عن العريضة . آه . شفتاك ترتجفان » . وأكتب :

أراكم بغير رؤوس
أراكم على ضفة النهر نملا
تدبون فوق رمال الظهيرة
وأسمعكم تخطبون عن المجد ـ يا للسمات المثيرة !
أعيدوا الحكايات : كيف أسرتم ضياء الشموس
وكيف ركبتم متون الرياح بخطبة ثار قصيرة !
الخ ..

فكيف تتصالح هذه الرؤيا العنيفة القاسية التي تنهال على عيني كالكابوس مع النبوءة المسكرة التي أقرأها في الكتابين ولا أشبع ؟

***

ولكني أذكر أيضا . ها أنا ذا في المطار ... والساعة الثانية بعد منتصف الليل . وحولي وجوه أخرى صافية النظرات . ان نبرات أصواتهم مختلفة ... واثقة وغنية وصبورة . لقد تخرجوا جميعهم من مهاوي الشرق الاوسط وقيعان تعاسته ، حبوا فوق التجاديف المجدبة وتسلقوا النتوءات الوعرة في رحلة الصعود الشاقة التي مزقت عنهم جلود آبائهم . وبعضهم تقلب في زنزانات المدن الكبيرة وحفر السوط في عضلات ساقيه مجاري للملح . انهم لا ينقون ولا ينعبون . ويوم كتبت « منذ وردن » كانوا هم في مخيلتي . لا ـ ان وجودهم الممنوح للمستقبل هو حجة مفحمة في يد نديم البيطار .

ماذا اذن ، ما خطبي ؟ كيف تعيش الرؤيا في لا وعيي ؟ كيف أصالح نشاز الانغام ؟ ولكن المزيد من الصور يهاجمني الان .

من بينها ، بارزة كأرنبة أنف كبير في وجه معروق ، صورة متحركة لفترة من الزمن دامت حوالي شهر . لقد أسميتها قصة « المقابلة » . صبرا لحظة ... فلن اذكر اسماء ولا تواريخ . انني أصور هنا ولا أؤرخ . المهم في هذه الحكاية هو المغزى البعيد ، هو معنى الحديث لا تسلسله . المهم هنا هو تلك الضحكة الطويلة التي حبستها الدموع في صدري .

كانت العاصمة ، شأنها شأن شقيقاتها من العواصم الاخرى في الوطن ، تنتظر زيارة مهمة ، من نوع فريد . وقامت الاستعدادات على قدم وساق عند من تخصهم هذه الزيارة من السكان . عشرات

(*) هذه تأملات ورؤى فنية . في العدد القادم ستكون رحلتنا على الصعيد الفكري الخالص .

(١) عناد ابي ان يدخل الكهرباء الى البيت ، ومصدرها شركة يهودية ، أسرنا سنوات أطول من جيراننا الى القناديل السحرية .

الاجتماعات ، نشاط مذهل أشبه بالتعبئة لغزو مقدس . يوما بعد يوم كانت تتأزم العلاقات وتتضاعف الشكوك وتتوتر الاعصاب .

. هاك مثلا : « يجب أن نعمل شيئا . الجميع دبروا أنفسهم . اسمع أنت وأنا ، ما رأيك ان نؤسس جبهة سرية ؟ »

كانت الاجتماعات تتوالى في الليالي الحبلى بالنقاش والهم. وكانت أرتال السيارات الكبيرة المتحمسة تقف امام البيوت ويقفز منها الرجال وقد بدا على وجوههم العزم والحزم والتصميم القاهر . حسبنا القضية الكبرى في طريق الحل الاخير . وبعد ثلاثة اسابيع من هذه الحمى والسباق المرير والتوقع اللاهث تناقل الناس النتيجة كأنها كرة قدم : انتخب عشرة أشخاص « للمقابلة » . كادت قلوبنا تقف في حلوقنا من الدهشة . ولما تمت الزيارة وذهب العشرة بوجوههم الرسمية لمقابلة الزائر ، وعقد المهرجان الخطابي ، ران على تلك الاحياء من المدينة التي عرفت طوفان الاراء المذهل ، صمت مثقل بالنعاس .

وجاء المغنون كل يغني وما منهم من يود السماع

وكل يجر الهه .

يظنون أنهم يدركون قرار المحيط !

طفاوة قش تجوب مياهه !

ما هو السد الذي يقف بين الارادة والفعل ؟ ما هو الممر الحلزوني الذي نعرف انه ينتهي الى سماء نديم البيطار وبحره المرقع بالاشرعة البيضاء ، ولا نعرف كيف نتغلب على متاهته وننفذ منه ؟ ما الذي يشدنا الى ماض أكلناه ودفناه مئة الف مرة ؟

أتمنى ان احيل الى خيوط من الكلس تلك الوشائج المتهللة التي تربطني بأسلوب حياة أدى بي الى المتاهة في ليل المنفى الطويل الذي لا يعرفه الا من لا وطن له .

***

لقد قطع جيلنا علاقته الروحية بالشروط المنطقية التي يحيطون بها وجودنا الافضل . فهي لا تنفذ الى أبعد من السطح . « اذا كانت الامة ستتقدم فيجب ان تقوي ... يجب أن تهتم ... يجب ان تصبح ... يجب ان وان وان . اولا ، ثانيا ، ثالثا ، عاشرا » . وأحيانا يعلو الرقم ليغرقنا في سيل من الاوامر والواجبات المفلسة سلفا . لا . ليس فوق الانقاض ينتفض البناء الجديد ، بل مكانها . هذا هو السر . انه يكمن في العري الحقيقي امام الزمن . في التخلي والرفض الجريء النقي لجلودنا نفسها . في الدخول في الفراغ الذي لا يحمل ميسم ولادتنا القديمة والذي يتوسط الدرب .

أرى انني أسير بالضبط في طريق الرؤيا الباهرة التي يرسمها نديم البيطار . ولم لا ؟ فنحن متفقان سلفا . بل انه متفق سلفا مع كل الذين عانوا تمرد الحب ـ كلماته تهبط علينا كقصيدة جميلة لانها تفسر عذاب روحنا الطويل وتمنحنا أملا لا يحتاج الاقتناع به الى اذكاء الحماسة والنخوة والنجدة في نفوسنا ، الى التشبث بالشعارات الرنانة وبالخطب وببلاغة القوم ، الى اللجوء الى ما يشبه العقاقير النفسية لاغراء عقولنا بأن انقلاب الفحمة الى نجمة ساطعة أمر ممكن ووشيك . انه يبرهن على ذلك ، حتى لتبدو معجزة الوصول أمرا طبيعيا محتوما . واذ نقرأ ونقرأ متوغلين في الغابة الخضراء التي ترسمها لنا الكلمات النارية المدعومة بأرفع ما يميز العلم من دقة ووعي واستدلال وتقص وتبحر ، يتغير لون أعيننا وينتقل لمعانها من صعيد الامل والفضول الى صعيد الثقة والمعرفة .

لكي نتخلص من التجوف يجب ان ندخل في الفراغ . التجوف هو وجود القشرة السميكة الميتة حول هيكل خلا من الروح . أما الفراغ فهو الخروج المقدس من اطار القشور التي غلفتنا والوقوف عارين امام الزمن والتاريخ . انه التخلص النهائي الحاسم من روابط ماض قريب لم يحمل لنا الا الحزن والهم ... ولم يرزقنا الا المأساة . الدخول في الفراغ ، في المطهر ، هو الخطوة الاولى نحو التحول الى كينونة خصبة تمتد الى الامام والى البعيد . انه اشبه بلحظات العدم الكامل التي يشعر بها من أفاق فجأة من حمى او غيبوبة طويلة ، او من خضع لعذاب جسمي او نفسي عظيم . بعد تجارب من هذا النوع يصبح التحول الى وجود جديد امرا ممكنا .

أين نحن من هذا الفراغ ؟ انه ملك أعماقنا وحدها اليوم . أما رؤوسنا ، وأما أعضاؤنا الحيوية ، فهي لم تزل ملك الماضي القريب الذي خاننا . نحن لم نزل مغمورين بأمواج الولاء الزائف لاراء مخضرمي هذا القرن ـ آرائهم عن البلاغة والفن والشعر والجنس والثورة والوطنية والحب والمال والدين .

ولهذا فنحن نكره ما تلهج به ألسنتنا ، لاننا لا نصدقه . نكره تجوف أصواتنا الهجينة التي تكاد تخوننا في كل لفظة ونغمة . لقد زاغت أعماقنا عنا كفك أصيب بالالتواء ، وتركتنا مسطحين . انها تتبرأ منا ... ونحن لا نسمع صوتها الا في الشعر ، فالفن هو نتاج الاعماق الوحيد .

اذا أردت أن تتعرف على غربة الاعماق فانك لن تبصرها الا في رؤى الشعر المعاصر العنيفة التي تتحدث عن الرفض والهدم والتفتيت ، وعن البعث بعد ليل الموت والصقيع .

لا ، لست أتكلم عن التراث البعيد . ذاك هو أصولنا الضائعة التي نبحث عنها عبثا في قاموس سياستنا المعاصرة ، في الخطب والاعلانات الهادرة ، في عناوين الصحف المثيرة ، في أصوات الاذاعات التي تنهال علينا ، بتشويش يكاد يبعث على الجنون ، من منابع الرياح الاربعة . اننا محاصرون من كل صوب ، وأول ما يحاصرنا هو جلدنا العتيق نفسه .

عندما تغزو المتناقضات هياكل الروح يصبح الانسجام امرا مستحيلا. يقولون أن التناقضات دليل الحيوية والحياة ، والباعث على الصراع في سبيل التحول والتخطي . آه ـ نعم ، عندما يكون الهجوم مركزا على الترسبات ، وعندما تتحد الحملة على ادانة ما يجب ان يدان ، عندها يصبح انتصار المثل المشتهاة أمرا محتوما ، ويؤدي الصراع النفسي ، اخيرا ، مهما طال ، الى استسلام كامل لنوازع التردي والخراب .

اما هنا ، فما الذي يحدث ؟ خلط مستمر بين موقفين متناقضين لا مصالحة بينهما ، ممالأة دائمة لنوازع قيم قديمة برهنت على افلاسها، طمع خنوع ، لا مبرر له ، في كسب ود مخضرمي هذا القرن ، بينما هؤلاء هم الخراب نفسه والتردي . آه ، انهم هم تعاستنا ... ثغرات الضعف في ثوراتنا المتوهجة التي لن تكون انبعاثا كاملا الا اذا رفضت ما يسميه نديم البيطار بالوجود القديم جميعه .

ان الانسان لا يستطيع ان يعيش وجودا منسجما خلاقا وهو عبد مقوس الظهر للتناقضات المستحيلة . انها تأكل حيويته . واذ تسلطت منازعه بعضها على البعض الاخر بدل ان تحولها الى العالم الخارجي تربطه الى الابد بدوامة القصور الذاتي . ويسكره صوت صراعه الداخلي ـ الجذب والشد ، التساؤل والنقاش ، الهجوم والدفاع ـ فيحسب انه في طريق الصعود ، بينما هو في مستقر القاع ، مستسلم الى ثبوتية الوتد الذي يشده الى الارض العتيقة .

واذ أصل الى هذه النقطة من البحث الذي هو فيض من الصور والتأملات وردود الفعل ، في لحظة وجدت لكي تكون ملك الشعر لا الفكر، تتثال علي الصور مرة اخرى . وها هي جزيرة يونج الشهيرة الكامنة في أعماق النفس تنكشف لي بالتدريج عما خزنته فيها من صور عذبتني عبر سبع سنوات . واذ تعرض اللحظات المهمة الماضية نفسها علي ، واحدة بعد الاخرى ، فتتقلب أمامي ، وتدور على نفسها ، وتنبسط وتنقبض ، أرى نفسي أعود مرة ثانية الى زنزانة الذكريات المرهقة .

بدر (1) على سرير المستشفى وفي انفه انبوب الطعام ، والحياة تهجر جسمه الذي أذوته الجهود والاوجاع ، وعذبه ترقب الموت . انه يناديني . « نعم يا بدر » . صوتي مرهق وخافت اذ ينطلق في

---

(1) الشاعر بدر شاكر السياب . المستشفى الاميري في الكويت . الغرفة رقم (١) حيث توفي في ٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩٦٤ .

هواء الفرفة الساخن الحزين . لقد كنت أرتجف ، وأوشك على البكاء . « هل تعلمين ؟ لقد ضاع دفتر شعري الجديد » . وبصوت يكـــاد لا يسمع « اقبال لم تجيء » (1) . ثم بعد لحظات « لقـد ضاع مني كل شيء » .

« هراء » ! قلتها له ألف مرة . « ان ما ملكت لا يضيع . ما كان أفقرنا لو ضاع منا ما أعطيت ! » .

كنا منذ سنوات طويلة قد بدأنا نستولي على كنوزه الكوكبية . لم يكن طالب مجد ، فراقب بعينين أفعمتهما دهشة طفولية تهـافت الاخرين على الالقاب التي هي ملكه الطبيعي لو شاء . ولكنه لم يعبأ . تركهم يتزاحمون . وعرفت صفحات المجلات ، وبطـون الكتب ايضا ، تشبث الاخرين بالقاب الريادة والامارة ، واستمر هو يكتب الشعر .

بدر ! بدر ! كان فقيرا وطيبا وكسير الجناح . المرض هد جناحه. وعندما قدم الشعر لمن مدوا اليه يد الانقاذ كان قد دخل في الدوامة الساخنة التي التفت عليه لتمنحه الوحدة والحمى والعجز والعذاب . ومثل غيلان أمام عينيه باستمرار : الوجه الصغير متسمرا على حافة السرير الابيض كأنه جزء منه .

مشكلتنا اننا أصررنا على أن نعمل منه بطلا في ذلك الموت البطيء المدمر للروح . فنحن يوم جرحنا في رجولتنا ، في فحولتنا نفسها ، أصبنا بهوس الفحولة ، وصرنا نحاول ان نعتصرها من كل شيء (الا من أنفسنا) ، ان نعتصرها حتى من بين فكي المرض والموت .

مغفرة يا بدر . انت لم تكن غريبا عنها . لقد شاركت ابنـاء شعبك في شوقهم العميق الى البطولة ، وتمنيت ان يكون موتك انتصارا لقدرة الانسان على التضحيـة والفداء . ولكنك ايضا ، في اعظم قصائدك ، كنت نصير البائس والمغدور . واذ ألقى سيزيفك عنه عبء الدهور واستقبل الشمس على قمة وهران ، استلقى بحارك الغريق على رمال الخليج مهجورا ومنسيا يشرب الريح والردى وفي فمه اعشاب البحر . لقد عرفت لحظة الشعر في نفسك أطراف النقيضين : نشوة البطل ، وانكسار المغدور البائس وانسحاقه في الموت . ولقد فـاضت دموع قلبك على كل ما هو منسي ومهجور وضعيف ومخذول ومغـدور في الحياة . لقد كنت شاعرا عظيما .

انهم لم يروك كما رأيتك أنا ، في تلك النهاية البطيئة التي تحطم القلب : الانابيب ، والبثور ، والهذيان ، والطعام الذي لـم يمس . لحظات الصفاء اللامعة ثم الكابوس والانهيار ، مودتك وحكاياتك وطلباتك الصغيرة ، ينبوع الشعر الذي ظل يتفجر من قلبك . سأكتب طويـلا عنك ، عندما أتخلص من عبء موتك وأتحرر من حضوره الفاجع المستمر في ضميري ، عندما تتراجع صورتك الاخيرة المقلقة ، المشتتة للنفس ، لتحل مكانها أنت ، في عالم الذكريات الانيسة التي يعيش فيها الاهل والاحباء والاصدقاء ممن صفوا علاقتهم مع الزمن ودخلوا في عـالم التخلي والصمت) .

اما الباحثون عن البطولات في أسرة المرضى وأتربة القبر، الحاضرون باستمرار في أروقة محاكم التفتيش ، الحافظون لشعارات الادانـة والاتهام ، المثيرون ، المحرضون ، المهوشون ، فماذا كتبوا عن جـلال كموش وموته ومعنى ذلك الموت ؟ ماذا كتبوا عن جنازتيه الصامتتين ، وعن المليون جنازة التي حملت موته في القلوب ؟ ما هو البطل امامهم في لحظة استشهاده . والمتهم امامهم في لحظة جريمته ، فأين اقلامهم المهوشة التي لا تعرف كيف تنقض الا على تكسر الاجنحة ووداعة الموت ؟

لست اعرف الكثير عن جلال ، وليس مهما ان اعرف الكثير . يكفيني ان اعرف انه ، في فترة اكفهرت بعجاج الخطب الجهوريـة واختنقت بالمؤتمرات الشكلية والمواثيق والقرارات وعنـاوين الصحف وحناجر الاذاعات ـ حناجر الفيلان ـ كان جلال يقدم الشيء الوحيد الذي يملكه ، دماء قلبه ، ثمنا للكرامة المهدورة . انني ارفض ان ابحث ما يحيط بمحاولة جلال من اعتبارات سياسية . البطولة كالشعـر ، تتجرد في لحظة ولادتها عن علاقاتها السياسية وتصبح تأكيدا جديـدا لقدرة الانسان على الابداع والخلق ، لقدرته على تجديد الحياة . لقد مات جلال بعد معاناة ومجالدة وعذاب شديد ، والمعنى الراعب المنضوي في موته اعظم من السياسة وأفدح من اعتباراتها الانيـة المتقلبة . ان موته الفاجع المنتصر يكشف لنا فداحة تنافضنا ـ ففي اللحظة التـي فرق الموت الرحيم المنقذ بينه وبين جلاديه ، التقى ، في التحـام حميم ، طرفا النقيض في الحياة العربية المعاصرة ، واندمج ، في وجود واحد خال من الانسجام ، عالمان لا يلتقيان الا في فترات نادرة فـي التاريخ ، عندما تتعايش براءة العطاء المطلق مع شذوذ الاغتصاب الذي يعلن موت الكرامة والمجد .

« عندما يتصارع الوجودان » . هذا ما كان خليقا بأن يقوله نديم البيطار . أمامي هنا رسالة صديق من الوطن ، تختنق بدموع لم تذرفه وتتماوج بألم التساؤل . انه يحدثني عن موت جلال . وها هو يقـول في النهاية : « أترى كان علي ان اريح نفسي وانضوي في الواقع العاجز اللامبالي حولي ؟ فلا تعب ولا تفكير ولا عذاب ؟ اترى كان علي ان اصيح : ليذهب نديم البيطار الى كتبه وفلسفته ... بعيدا عني انـا الواقـع العربي الذي يقول : لا تحمل السلم بالعرض ؟ » .

***

هذا مستحيل بالطبع . الشاعر الحديث مثلا يعرف هذا . ولولا ان شعره محمل بالرموز التي تستعصي على جلادي العصر ، وبالشعر ، لتذوق جميع الشعراء الحياتيين لـعة السوط . هم ايضـا كـان باستطاعتهم ان يلعبوا لعبا سليما في هياكل الفن ، لعبا يؤمن لهـم الاجراس ويعبد لهم المسالك الانية لحياة يومية اشبعت تفاهة وتجوفا ، كما فعل غيرهم من شعراء العصر .

الخطوة الثانية هي ان يصل الانسان الى قمـة التخلي ، وبتلك الكبرياء الحادة كشعبة زجاج مكسور التـي تميز المتمردين ، ان يخترق المناطق الممنوعة التي لا يعبرها الا من وصل به اليأس الى ايجابية الفعل الخلاق . وليرقب المتسكعون عذابه المنتصر .

لقد أمضينا صبانا نتحدث عن الحرية ونحاول ان نجتاز الخنادق الفاصلة بين العبودية والانسان لنتوصل الى توهج التعبير البـريء . غير ان خوفا مبهما ورثناه من تراكم الاجيال المستعبدة عبر القـرون ، جيلا مستعبدا بعد جيل ـ كتراكم طبقات الكلس في مغارة مظلمة ـ كان يشل أجنحتنا . ذلك لان الخذلان الفاجع الذي أصيبت به كل طفرة جراة وكل انطلاقة تمرد ، رسخ في قلوبنا خوفنا العتيق الموروث عندما برهن لنا على ان البسالة والاستشهاد لم يوصلانا بعد الى طريق المجـد . وبقيت صرخة الاحتجاج التي أطلقناها معلقة في الهواء ، تمتد وتنجاوب وتنتشر مولدة ملايين الاصداء التي لا تموت بل تضاعف بنفسها فـي كل لحظـة .

سؤال ولا جواب ، اقتحام ولا ظفر ، انطلاق ولا وصول ، عطـاء ولا ثمر ، احتراق ولا نور . ما الذي خذل قافلة شهدائنا التي لا تنتهي؟ ما الذي سمر خطواتنا على الدرب ؟

نديم البيطار يجيب على هذا : انه تداخل الوجود التقليـدي القديم في تلافيف حياتنا المعاصرة ، الوجود التقليدي القديم بقصوره المشيدة من حجر الخفان وأوهام المجد ، بوطنيته اللفظية المشبعة دغدغة وغرورا ، بتسلطه الخفي علـى روحنا ، وتسلله اللامرئي الـى ارادتنا الخلاقة .

فمتى تحدد ساعة الفصل ، متى نرسم الخط الحاسم ؟

وبين كل بوادر الشذوذ التي تتميز بها هذه الفترة المحتـدمة من حياتنا يظل انزواء الكتاب (1) العظيم الذي أوحى بهـذه المقـالة أفدح شواذنا وأعجبها . لقد مضت سنة ونصف السنـة ، وأسفاه ، دون ان اسمع في عالمنا « الثوري » صدى كافيا لافكار الكتاب العظيمة التي تعتق العقل وتقود الى درب التحرر . أترى وقع بيننا كما تقـع شعلة من النار في بركة مـن الكلس البارد ؟ ـ آه ـ لمن كتب نديم البيطـار ؟

وتمضي الايام وتدور ... وتدور . ما أغرب هذا الامر !!

سلمى الخضراء الجيوسي

---

(1) اقبال زوجة الشاعر . وغيلان طفل الشاعر . ولـه بنتان : غيداء وآلاء .

(1) كتاب « الايديولوجية الانقلابية » الذي ذكرتـه فـي الصفحـات الاولى .